(١٤) مارك توين : مغامرات توم سوير

بقلم : لويس د . روبين (الابن)

قد يبدو من الغريب أن يشعر شخص بالحاجة إلى الدفاع عن رواية باعت ملايين النسخ ، وترجمت إلى معظم لغات العالم المكتوبة ، وأصبحت جزءاً ليس فقط من الأدب بل من الفولكلور الجوهرى للطفولة . ووصف المؤلف لها بأنها « مجرد ترنيمة كتبت بالنثر لكى يمنحها الطابع الدنيوى » نادراً ما يمتد ليبتعد بالحقيقة عن واقعها الفعلى !

لكن بالرغم من كل هذا النجاح فإن « مغامرات توم سوير » تعرضت لاهتمام ضئيل نسبى من النقاد ، وعندما يدور النقاش حولها فإنها عادة تعتبر مجرد مرحلة فى تطور مؤلفها فى اتجاه « مغامرات هاكلبرى فن » ، لذلك تعتبر « هاكلبرى فن » بصفة عامة تحفة مارك توين وليست « توم سوير » .

ويعلن ليونيل تريلنج أن « توم سوير » ، كرواية تمتلك حقيقة الإخلاص والأمانة ؛ فإن ما تقوله عن الأشياء والمشاعر لا يمت بصلة إلى الزيف ، بل دائماً مناسب وجميل . إن لرواية « هاكلبرى فن » هذا النوع من الحقيقة أيضاً لكنها تمتلك أيضاً جوهر العاطفة الأخلاقية ؛ إنها تتعامل مباشرة والفضيلة والخطيئة فى قلب الإنسان ! . وسيثور قراء قلائل ضد هذا التقويم ، لكننى بالتأكيد لن أفعل مثلهم . فعلى المنوال نفسه فإن الأهمية الأساس « لتوم سوير » لا تكمن

فى كونها مقدمة «لها كلبرى فن» . دعنا نفترض أن صامويل ل . كليمنز فعل بمخطوط «هاكلبرى فن» ما فعله بمخطوطات عدة جدًّا : أى أنه تركها بعيداً بعد كتابته للفصول الافتتاحية ، لكنه لم يعد إليها إطلاقاً لدرجة أنه لا يوجد شيء بعد الحادثة التى اصطدم فيها القارب البخارى والطوفُ. فإذا أدركنا أسلوب كليمنز فى التأليف الأدبى فإن هذا من الممكن أن يحدث بمنتهى السهولة المطلقة . إذن أين تقع «مغامرات توم سوير» على خريطة مارك توين ؟

من المؤكد أنها يمكن أن تكون أفضل رواية لمارك توين ، وعلى الرغم من أن اعتماد شهرة مؤلفها عليها لن يجعلها شهرة واسعة مثل تلك التى يمتلكها بصفة عامة ، فإنها مازالت شهرة عريضة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . فإن «توم سوير» وحدها كفيلة بأن تجلب الشهرة لكاتبها وأن تضعها فى الحفظ والصون . وإذا كانت الحال هكذا فإنه يبدو من المناسب تماماً أن نُركز عليها انتباهاً أكثر بصفتها رواية مستقلة فى ذاتها وليست لمجرد أنها متبوعة برواية «هاكلبرى فن» .

وربما كان من التفسيرات التى تبرر المكانة المرموقة والشهرة الملازمة «لتوم سوير» أنها أصبحت معروفة ككتاب يستطيع الأطفال قراءته والاستمتاع به . ومن المعتاد أن يستوعبه المرء منذ سن العاشرة أو الثانية عشرة أو حوالى ذلك . ويتم تقديمها إلى القراء فى السن نفسها تقريباً التى تقدم فيها «جزيرة الكنز» و «عائلة روبنسون السويسرية» و «روبين هود ورجاله المرحون» و «هانز برينكر وأحذية التزحلق الفضية» و «عشرون ألف فرسخ تحت البحر» و«الربابنة الشجعان» ، أو إذا كان القارئ فتاة فيمكن تقديم «هيدى والنساء الصغيرات» .

ومن ناحية أخرى فإن «هاكلبرى فن» غالباً ما تثير الحيرة ؛ إذ إنها فى الواقع ليست كتاباً للأطفال ، بل إننى أتذكر فى حالتى أنا بصفة شخصية أننى وجدتها محيرة تماماً ، وتوقفت عن قراءتها عند النقطة التى يبدأ فيها الأب فن فى ضرب هاك ولم ألتقطها مرة أخرى للانتهاء من قراءتها تماماً حتى سنوات دراستى الجامعية .

وتشتمل «توم سوير» على حلقات محيرة أيضاً لكنها محيرة بأسلوب مختلف : إنه يمكن الطفل قراءتها والاستمتاع بها ، ويمكن أن يستمر فى الاستمتاع بها بعد ذلك إلى ما شاء الله . وهذه خاصية لا تشترك فيها إطلاقاً معظم أو كل كتب الأطفال التى سبق ذكرها . يرجع هذا إلى حبكة «توم سوير» المثيرة تماماً للطفل ، لكنها ليست الجاذبية الرئيسة للرواية . وهكذا فبدلاً

من تقلص جاذبية الكتاب بمجرد اكتشاف القارئ للكيفية التى وقعت بها الأحداث فإنها تصبح أقوى . وبمجرد أن نعرف ما سوف يحدث فإن تركيزنا يتحرر – إذا جاز لنا هذا القول – من التركيز الضيق المنحسر فى الخط السردى للمغامرات ، وينطلق لكى ينصب على أسلوب خلق الشخصيات والخلفية والمعنى والخيال للقصة .

وكان كليمنز على حق عندما أكد لصديقه وليم دين هاولز أنها لم تكن كتاباً للأطفال بقدر ما هى كتاب عن الطفولة كتب للبالغين . وكما يعلن فى المقدمة «إن جزءاً من خطتى أننى حاولت تذكير البالغين – برقة – بما كانوا عليه ذات مرة من قبل ، وكيفية شعورهم وتفكيرهم وكلامهم ، والأفعال الغريبة التى تورطوا فيها أحياناً .» لكن «توم سوير» ليست بالكتاب الذى يدور ببساطة حول هذا النوع من الحنين ، إنها تتجنب على نطاق واسع الشطحات المسرفة فى العاطفة التى ترتبط بكتب كثيرة جدًّا عن الطفولة ومكتوبة أساساً للبالغين : ففى الكتاب ينظر الكاتب إلى توم نظرة ملؤها الجدية التامة ، وفى إمكانه أن يصف تجربة توم بالجدية التى ينظر بها نفسها توم إليها . إنه لا يقلل من شأن توم بالكتابة عنه من عل .

وهناك فى عالم توم سوير قدر لا يستهان به من المضايقات ، بل هناك قدر عظيم فى حياته يشتمل على الرعب والعنف ، وأيضاً على الشر ! وكل ما علينا أن نضعه فى الاعتبار هو ما يقع لتوم وهاك بطول مجرى الأحداث فى الرواية : فهما يذهبان إلى جبانة فى الليل ويرقبان ثلاثة رجال ينهبون قبراً ، ثم يتصارعون فيما بينهم حتى يسقط واحد منهم قتيلاً من جراء طعنة . وكان إنجون جو هو الذى ارتكب جريمة القتل ، لكن اللوم يقع على عاتق ماف بوتر . ويطغى الرعب على توم عندما يفكر فيما سيفعله إنجون جو إذا أبلغ السلطات حقيقة ما حدث لدرجة أنه يتكلم ويئن من هذا فى نومه . وعندما يسرد ما حدث فى النهاية فإن ماف بوتر يستعيد حريته ، لكن توم منذ تلك اللحظة يعيش فى رعب من انتقام إنجون جو .

وبعد ذلك يصغى هو وهاك إلى القصة الثانية التى تدور حول البيت المهجور الذى يختبئ فيه إنجون جو متخفياً كرجل أصم وأخرس من إسبانيا حتى يكتشف أخيراً الكنز المدفون . تلك لحظة مرعبة عندما يبدأ إنجون جو فى صعود السلم على سبيل الكشف ، لكن لحسن حظ الصبيين ينهار السلم المصنوع من الغاب الذى تعفن ، ويصرف جو النظر عن عملية البحث . بعد ذلك يذهب توم مع بيكى ثاتشر فى رحلة إلى الكهف ، ويضل كلاهما الطريق ، ويتخبطان فى الظلام لعدة أيام قبل أن يجد توم طريقه إلى الخارج . فى الوقت نفسه يستمع

هاك إلى إنجون جو وهو يتآمر لكى يشق فتحتى أنف الأرملة دوجلاس ويقطع أذنيها ، فيقوم بتحذير بعض المواطنين المجاورين من الخطر المحدق بالأرملة . فى تلك اللحظة تدوى طلقات الرصاص وينطلق هاك المرعوب فاراً بحياته . أما بالنسبة لإنجون جو فإن هذا التعس يعود إلى الكهف . وعندما يقوم القاضى ثاتشر بسد مدخل الكهف بعد أن يتم إنقاذ توم وبيكى فإن هذا المولد يموت من الجوع والعطش عندما وقع فى هذه المصيدة التى لافكاك منها .

ومهما قيل فى «توم سوير» فإنه من الصعب وصفها بأنها ترنيمة حنين على الأقل فيما يتصل بتوم وهاك ، لكن العنف والرعب اللذين منهما قدر لا يستهان به فى القصة – ليسا من نوع الرهبة التى نجدها نفسها فى «هاكلبرى فن» : فعلى سبيل المثال ليس فى «مغامرات توم سوير» ما يجارى وصف هاك لأبيه فى الفصل الخامس من «هاكلبرى فن» : «لم يكن هناك لون فى وجهه ، وعندما لمحت وجهه كان أبيض ، ليس فى بياض وجه أى رجل آخر ، إنه بياض فى لون بطن السمكة ! » إن فقرة مثل هذه تذكرنا بأسلوبها الخاص ملاحظات إشمائيل عن بياض الحوت فى «موبى ديك» ، وتزيد فى رعبها وشرها درجات عدة عن أى وصف لإنجون جو غامر به المؤلف فى «توم سوير» .

والسبب فى هذا بالطبع هو أن الكاتب يسرد «هاكلبرى فن» من خلال هاك مع الاستخدام المتعمد للغة الشعبية التى يعبر بها فى حين أن «توم سوير» تحكى بالكاتب البالغ وبكلماته هو شخصياً . وفى حين أن هذا الاختلاف يعد من الأسباب التى جعلت من «هاكلبرى فن» رواية عظيمة فإنه السبب أيضاً الذى جعل «توم سوير» تنجح تماماً فى مجالها .

وبناء على ذلك دعنا نتعرض للمنهج الذى سردت به «توم سوير» بادئين بفحص الفقرات الأولى فى القصة :

«توم ! »

لا إجابة !

«توم ! »

لا إجابة ! .

«ماذا دهى هذا الصبى ؟ . . إننى لجد مندهشة . أنت ! يا توم ! »

لا إجابة !

خفضت السيدة العجوز من نظارتها وألقت ببصرها من فوقها فى جميع أرجاء الغرفة ، ثم

رفعتها مرة أخرى وألقت ببصرها من تحتها . وهى نادراً ما تنظر من خلالها ، بل لا يحدث هذا إطلاقاً من أجل شيء صغير كهذا الصبى .

كانت هذه النظارة دولتها الصغيرة وفخر قلبها ، ولم يكن المقصود بها الخدمة والاستعمال ، بل الأسلوب « والموضة » – فقد كان فى إمكانها أن ترى من خلال زوجين من أغطية مواقد الغاز بالكفاءة نفسها تماماً . نظرت فى حيرة لبرهة قصيرة ، عندئذ قالت بدون عنف لكن فى صوت مازال مرتفعاً بما فيه الكفاية ليسمعه أثاث المنزل :

« حسناً ! إننى أجزم أننى إذا أمسكت بخناقك فسوف . . . »

لم تكمل كلامها لأنها فى ذلك الوقت كانت تنحنى لترسل ضرباتها العنيفة تحت السرير بالمكنسة . لذلك كانت فى حاجة إلى استنشاق الهواء لتواصل ضرباتها بانتظام . ولم تتحكم إلا فى القطة .

« لم أسمع الضربات قط وهى تنهال على ذلك الصبى ! »

ذهبت إلى الباب المفتوح ووقفت على عتبته ، ونظرت من خلال نبات الطماطم وأعواد الغاب التى تتألف منها الحديقة . لم يكن هناك أثر لتوم . ثم رفعت صوتها ليناسب الزاوية وبعد المسافة وصاحت :

« أ – ن – ت – ت . . يا توم ! »

كانت هناك ضجة خفيفة خلفها . . وفى الحال استدارت لتقبض على صبى صغير ممسكة إياه من حزام سرواله مما أعجزه عن الهرب ! »

لاحظ الذى يجرى : فقد بدأنا بالعمة بولى وهى تنادى توم . إذن فهذه هى العلاقة المباشرة بين السيدة العجوز وتوم ، وهى فى الوقت نفسه بداية التطور الدرامى الأساس للرواية التى ستصب اهتمامها ذاته على توم سوير ونشاطاته وعلاقاته بمختلف الناس الذين يعيشون فى مدينة سان بيترزبرج بميزورى . وبالطبع فإننا فى هذه النقطة لم نكن نعرف أن ذلك هو توم – لا السيدة العجوز – الذى سيهمنا بالدرجة الأولى ، وأن هذا الممر مهم أساساً فى وصفه فى أثناء اختباء توم من السيدة العجوز ، وطالما أن عنوان الكتاب هو « مغامرات توم سوير » فمن الطبيعى أن نتوقع ظهور توم . والأسلوب الذى يدخل به إلى المسرح . بهذه الطريقة الخاصة يقدم لنا معلومة فورية عنه . ويعد الدور الذى يؤديه توم فى أول منظر بالذات هو الخط الذى سيستمر فيه بطول القصة : أى دور الطفل الذى ربط نفسه بمحاولة التغلب بذكائه على عالم البالغين .

وعلى أية حال فإن هذا مجرد جزء مما سيدور فى هذه الفصول الافتتاحية :

هناك أيضاً وصف السيدة العجوز وبالذات فيما يختص بالأسلوب التى تضع به نظارتها : فنحن نعلم أنها لا تنظر من خلالها ، وإنما من فوقها أو من تحتها ؛ لأنها لا تستطيع أن تنظر من خلال العدسات نفسها ؛ فهى تضع النظارة الطبية على عينيها على سبيل المظهر فقط . وهى أيضاً سيدة عجوز مقلقة إلى حد ما ، تعودت الكلام مع نفسها والصياح بصوت مرتفع تماماً ؛ كما نراها وهى تدس المكنسة بمنتهى النشاط والحيوية تحت السرير ؛ لكى تجبر توم على الخروج ، وتنجح فقط فى إخراج قطة من تأملاتها !

هكذا نحصل على معرفة أى نوع من الناس كانت هذه السيدة العجوز ، ولا شك أنها كانت معرفة زاخرة بروح الدعابة .

ويجب أن نلاحظ أننا لا نحصل على هذه المعرفة سواء من السيدة العجوز أو من توم ؛ كما أننا لا نراها كما ترى هى نفسها أو كما يراها توم ، بل نراها من وجهة نظر الكاتب : أى من أعلى . وهو لا يصفها فقط بل يعلق مداعباً على وصفه : إنه يبالغ من أجل إحداث الأثر الكوميدى ، وبالتأكيد فإن نظارة السيدة العجوز ليست بهذه الدرجة من الإظلام بحيث يشبهها بأغطية موقد الغاز ، ومن الواضح أن الأثاث لا يمكنه سماع صياحها . ولا هى ترفع صوتها فعلاً « ليناسب الزاوية وبعد المسافة » ، فإن ذلك هو أسلوب الكاتب المرح الذى يصفها به . فالاستعارة تتمثل فى رصد قطعة من سلاح المدفعية . هذا هو أسلوب الروائى ونحن نستمتع به .

وعلى ذلك فإن الوجود المباشر للروائى مهم جدًّا بالنسبة لروح الدعابة التى تزخر بها هذه الفقرة الافتتاحية ، وبالطبع مهم بالدرجة نفسها فى معظم ما يرد بعد ذلك فى الرواية . إنه الدور النشيط الذى يقوم به المؤلف بصفته قائداً للأوركسترا فى روايته للقصة واضعاً فى اعتباره المسافة بين القارئ وأحداث الرواية . وهذه المسافة مهمة جدًّا ؛ لأنها الأسلوب الذى تنهض عليه الرواية وتكتسب به كثيراً من معناها .

إننا لا نرى توم وهاك وهما يصنعان الأحداث ، فالكاتب يقوم بوصفها لنا . وبالطبع فإننى لا أعنى أن انتباهنا مركز على وجود الروائى فى كل لحظة من لحظات الرواية ، لكن مارك توين غالباً ما يؤكد وجوده بما فيه الكفاية لكى يجبرنا على وضعه فى اعتبارنا ، وذلك على الرغم من أننا نادراً ما ندرك أننا نقوم بهذه العملية .

ولنلق نظرة فاحصة إلى الفصل الخامس عشر على سبيل المثال : فهو يبدأ بوصف مختصر مركز – يشبه أسلوب هيمنجواى – لتوم وهو يرحل من جزيرة جاكسون فى حين أن زملاءه من القراصنة يغطون فى نومهم :

« بعد دقائق قليلة بلغ توم المنطقة الضحلة بالقرب من حاجز المياه ميمماً وجهه شطر شاطىء إلينوى . وقبل أن يبلغ عمق المياه منتصف قامته كان قد بلغ منتصف المسافة . ولم يكن التيار يسمح بتوغل أكثر من هذا . وهكذا ضرب بيديه بثقة ليسبح مائة الياردة المتبقية . سبح بعزم إلى الأمام ، لكن المياه كانت تجرفه بأسرع مما توقع . وعلى أية حال فإنه بلغ الشاطئ فى النهاية عندما جرفته المياه إلى بقعة منخفضة جذب نفسه منها . وضع يده على جيب جاكتته فوجد قطعة اللحاء سليمة . اخترق الغابات بحذاء الشاطئ والماء يتساقط من ملابسه . وبعد فترة قصيرة قبل أن تدق الساعة العاشرة وصل إلى مكان مفتوح فى مواجهة القرية ، ورأى المعدية قابعة تحت ظلال الأشجار والضفة العالية . كان كل شىء هادئاً تحت النجوم المتناثرة بين الانطفاء والتوهج ، زحف عبر الضفة فاتحاً عينيه تماماً ثم تسلل إلى المياه وسبح مسافة ثلاث أو أربع ضربات ، وتسلق قارباً يصلح لشخص واحد كان يقوم بواجب السير خلف القارب الكبير لملاحظته . ألقى بنفسه تحت مقعد القارب وانتظر لاهثاً .

فى الحال قعقع الجرس المشروخ وسمع صوتاً يلقى بأمر « فك القارب » وبعد دقيقة أو اثنتين ارتفعت مقدمة القارب الصغير مع ارتفاع القارب الكبير فوق سطح المياه وبدأت الرحلة . »

بهذه الدقة والتركيز تكتسب الفقرة القدرة على التأثير فى حين أن الروائى لا يلقى بأية ملاحظات أو يخترع أية استعارات غير عادية لكى يجذب الانتباه إلى نفسه ، بل يركز بؤرة نظرتنا على الأحداث نفسها . ويستمر على هذا المنوال بطول سير توم فى المدينة بمحاذاة الشاطئ ، وهو يخترق الأزقة الخلفية عائداً إلى بيت عمته ، متسللاً فى هدوء إلى الداخل وآخذاً مكانه تحت السرير . بعد ذلك نسمع عمته والمسز هاربر تتجاذبان أطراف الحديث المشحون بالأسى والحزن من أجل الصبيين المفقودين . ليس هناك أى تفسير ، بل مجرد حوار مباشر وأخيراً تتحدث العمة بولى كما يلى :

« نعم . نعم . نعم . إنى أدرك تماماً حقيقة شعورك يا مسز هاربر . أنا أدرك تماماً حقيقة شعورك . فلم يمر وقت أبعد من ظهر أمس عندما أخذ توم القطة وملأ فمها بالشطة ، واعتقدت فى تلك اللحظة أن صراخها سيهدم المنزل ! فليسامحنى الله ، إذ إننى أحدثت شرخاً فى رأس

توم بكستبانى . حسرتى عليك أيها الصبى المسكين ! أيها الصبى المسكين الميت ! لكن متاعبه كلها انتهت الآن . وكانت آخر الكلمات التى استمعت إليها منه هى تأنيب . . . »

وكانت هذه الذكرى أقسى مما تحتمل السيدة العجوز فانهارت تماماً ! »

عند هذا المنعطف تنذر القصة بالابتعاد عن وجهة نظر توم ؛ بهذا ندرك كم كانت مغامرة الصبيين غير مضحكة على الإطلاق لكبار العائلة . وذلك عندما لعبا دور القراصنة فى جزيرة جاكسون ؛ إذ ظن الكبار أن الصبيين قد غرقا ! هكذا أصبح مارك توين مهدداً بخطر ضياع تحكمه فى السرد الروائى . فعندما أظهر توم مباشرة وهو عائد إلى بيته من الجزيرة ، فى حين غرقت السيدتان العجوزان فى الحزن والأسى بدون أن يضع كنفسه كراوى بدلاً من القيام بدور الوسيط – فإن مارك توين بهذا سمح للموقف أن يقترب كثيراً من الأسلوب الذى يستدر الدموع . وبناء عليه يكبح المؤلف جماحه بسرعة ويستمر فى وصفه كما يلى :

« أصبح توم يتنفس بصوت عال الآن وقد شعر بالأسى لنفسه أكثر من أى إنسان آخر . إنه يستطيع أن يسمع مارى وهى تبكى وتتحدث عنه فى كلمات رقيقة متعاطفة من حين لآخر ! عندئذ بدأ فى الاعتزاز بنفسه أكثر من ذى قبل . وكان قد تأثر بما فيه الكفاية لحزن عمته عليه لدرجة أن نفسه تاقت إلى الاندفاع خارجاً من تحت السرير ؛ كى يغمرها بالبهجة والسرور . وأحس بميل شديد إلى هذه الروعة الدرامية المثيرة التى تتمشى مع طبيعته ، إلا أنه قاومها وظل قابعاً فى مكانه . »

ولا شك أن الطاقة التى كانت يمكن أن تستدر الدموع قد تلاشت ونحن نبتسم من جراء اندماج توم فى سلوكه المسرحى الصامت تحت السرير ، وهو السلوك الذى يمثل أفضل الأساليب الرومانسية ؛ فقد أصبح هذا ممكناً بفضل تفسير الراوى الكوميدى لما يدور أمامنا ، فهو يستدرجنا بعيداً عن تقويم توم للمنظر : ثم ننظر إليه من أعلى : أى من على مستوى المؤلف نفسه . وإذا لم يكن القصاص قد أعاد تأكيد وجوده ونظرته فإنه كان من المحتمل أن يتركز اهتمامنا على الكيفية التى عانى بها العجائز فى سان بيترزبرج لدرجة أننا نصبح غير قادرين على الاستمتاع بمغامرات الصبيين الهاربين على جزيرة جاكسون ، بل سنعتبر عودتهما المنتصرة فى الموقف المكثف داخل الكنيسة نوعاً من الاستعراض القاسى الخالى من أى تفكير ، أكثر منه موقفاً دراميًّا مؤثراً لتوم سوير .

وموجز القول إن الوجود الواعى للروائى المشارك فى التعليق والتفسير بمبالغاته ونكاته

وفلسفته للأمور يخلق المسافة وعدم التعاطف الضرورى لكى ننظر إلى حركات توم سوير الانتهازية من الزاوية المناسبة . لذلك فإن الزاوية الثابتة تتمثل فى نظرة البالغ إلى طفولة توم . وإذا كنا نستطيع أن نرى الأشياء كما يراها توم الذى يعتبر ملاحظاً واعياً وحاداً جداً فإننا نرقب توم أيضاً وهو يرى ويفكر من وجهة نظر البالغ . إنها تلك العلاقة المزدوجة التى تمنح الكتاب شكله ومعناه ، فالمسافة هنا تكمن فى البعد الزمنى عندما يعود البالغ بذاكرته إلى أيام الطفولة : فالأحداث التى تقع فى أثناء قراءتنا لها قد انتهت بالفعل ؛ لأنها وقعت فى الماضى . وإذا كان الروائى بصفة خاصة واضحاً فى روح دعابته وفى ولعه إلى حد ما بتوم ، بل هو مستمتع بالعودة إلى الوراء حيث عالم الطفولة – فإنه لم يسمح لنا إطلاقاً أن نأخذ الأشياء على محمل الجد إلى الدرجة التى تبدأ فيها فى الظهور بالمظهر العاطفى أو المأسوى . فالسرد كله قد تم تقطيره من خلال غلالة الزمن التى تمثلت فى الماضى .

إن وجود هذه الزاوية أو المنظور أو وجهة نظر الروائى البالغ له دور فعال وواع بنفسه جداً فى كشف خبايا القصة ، فهو يقلل ويهدئ من العنف الذى ميز معظم تجربة توم سوير لدرجة أنه لا يؤثر فينا بدرجة العنف الذى يماثله فى « هاكلبرى فن » نفسها . والفورية التى نحسها فى الفقرة التى تصف اللحم الأبيض للأب فن – والتى وردت قبل ذلك – ترجع إلى أسلوبها المباشر وتأثيرها على أحاسيس هاك ؛ كما ترجع إلى تأثيرها علينا من خلال الوصف الذى يثير فى داخلنا قشعريرة ثلجية .

أما بالنسبة للغة هاك فقد بدأ مارك توين فى اكتشاف إمكاناتها بالقرب من نهاية « توم سوير » : فقد أدرك الكاتب أنه يستطيع مواجهة تجربة صباه عبر النهر مباشرة بدون الحاجة إلى الالتزام بنظرة المراقب المثقف البالغ .

وقد تمثلت المحصلة النهائية فى الدراما الأخلاقية العظيمة فى « هاكلبرى فن » . أما فى « توم سوير » فقد كان من المستحيل بالنسبة له أن يفعل هذا ؛ فهو الروائى المرح المنطلق الذى يستعيد ذكريات طفولته فى ميزورى .

لكن إذا كان وجود القصاص بصفته بالغاً قد جعل من بعض الاكتشافات المهمة شيئاً مستحيلاً بالنسبة لمارك توين فى « توم سوير » – فقد كان له المزايا التى عوضته عن ذلك : فالرؤية من خلال هذا المنظور البالغ بكل أبعاده الثابتة والممتدة إلى الماضى والحاضر قد مكنت مارك توين من أن يسرد قصة تجسد عنصر الزمن أو على حد قوله « ترنيمة للصبا » . إن

وصف أشهر الصيف فى سان بيترزبرج الذى يشكل «مغامرات توم سوير» ليس نابعاً من سعادة ومرح معقدين على الإطلاق ، وكما رأينا فإن توم سوير له متاعبه ، وأحياناً تصبح حياته كئيبة تماماً .

والترانيم ليست بالضرورة بهيجة : فهى على أية حال معزية ومريحة وهو الإحساس الذى تتركه نفسه «توم سوير» فينا فى النهاية . ! إنها معزية ومريحة ؛ لأنها وقعت بالفعل ولايهم : هل كانت تساير أهواءنا أو لا ؟ فهى قصة حياة صبى ، عاشها ومارسها ، وكونها انتهت فإن ذلك فى ذاته يمنح رضاً سواء للقصاص البالغ أو القارئ البالغ . إن الإحساس بمرور الزمن له الأهمية الأولى فى الرواية . فتوم ينمو ومارك توين يدرك أهمية هذه الحقيقة فى ختامه لروايته عندما يلاحظ «أنها كانت بمنتهى الدقة تاريخ حياة صبى ، ويجب أن تتوقف هنا ، فهى لا تستطيع أن تذهب أبعد من هذا بدون أن تتحول إلى تاريخ حياة رجل» : تصف الرواية فترة حوالى أربعة أشهر فى حياة توم بلغ فى آخرها نهاية طفولته وبداية مراهقته ، فى حين أن أحداث القصة تتجه صوب تلك الخاتمة .

ليس هذا حقيقيًّا فقط فيما يختص بحبكة المغامرات الفورية ، بل ينطبق أيضاً على الشكل الأكبر والاتجاه الذى تتخذه الرواية . ولا شك أن الحبكة هى التى تثير القراء الصغار بالدرجة الأولى ، وحقًّا فإنه مع تتابع قصص المغامرات تتصاعد الإثارة داخلنا . إنها تشتمل على البحث عن كنز مدفون يغرى توم وهاك بالهروب متقمصين دور القراصنة على سبيل اللعب ، ثم يشرعان فى البحث عن الكنز الذى يجدانه فى النهاية داخل الكهف . وفى الطريق إلى هذا الاكتشاف يتورطان فى نشاطات خطيرة متعددة تشتمل على حراسات يقظة فى فناء مقبرة وجثث وبيوت مسكونة ومولدين بالغى الشر ؛ وبالنسبة لتوم فقد أوشك أن يقبر حيًّا فى الكهف . وهناك قصص فرعية أيضاً منها تلك القصة البارزة التى تشمل علاقة توم الرقيقة ببيكى ثاتشر ، وربما كانت أقل أجزاء الرواية إقناعاً ؛ لذلك فإنه على مستوى المغامرة المباشرة تحتوى «توم سوير» على الكثير الذى تستطيع أن تقدمه .

لكن سلسلة المغامرات ليست بالتطور الرئيس فى الرواية على الرغم من أن سيطرتها تتزايد كلما اطردت مواقف القصة : فالتطور الأعظم والأكثر أهمية فى «توم سوير» يتمثل فى نمو توم الذى يمنح قصة مارك توين قدرتها على إثارة الاهتمام باستمرار . إن حبكة المغامرات بصفة مبدئية – كمعادل كيماوى صوب تلك النتيجة . والأهم من ذلك أن مارك توين يفعل هذا ؛

لكى يظهر لنا طبيعة توم سوير الخيالية ومكانتها فى المجتمع الذى تمارس نشاطها فيه بحيث تتطور هذه العلاقة من خلال سلوك توم وأفكاره التى يقوم بتنفيذها . ويشكل توم سوير ومدينة سان بيترزبرج الموضوعين الرئيسين فى كتاب مارك توين ، وتقوم أحداث القصة بترسيخ وتحديد العلاقة بينهما على وجه التأكيد . وعندما نقابل توم لأول مرة فى الرواية نجده – كما سبق أن ذكرنا – هارباً من العمة بولى ! بعد ذلك يقع بين شقى الرحى فى مجتمع البالغين ! وعلى الرغم من أنه ليس منفصلاً عن مجتمعه مثل هاك فن فى روايته فإنه لا يعد منشقًّا عنه . إن المدى الذى وصل إليه توم فى قبول قيم المجتمع بولغ فيه من قبل معظم المعلقين عليه : فنجد هنرى ناش سميث الذى يعد من أعظم النقاد استيعاباً وفهماً لروايات مارك توين يرصد الفقرات الختامية فى المنظر الذى يدخل فيه توم وأصدقاؤه الكنيسة منتصرين فى حين أن مراسيم جنازتهم قائمة على قدم وساق ! يرصد هذا كنموذج على قبول توم – ومن ثم قبول مارك توين – لأخلاقيات المجتمع ومثالياته !

«فجأة صاح القس بأعلى صوته : «الحمد لله على كل البركات التى يسبغها علينا – غنّوا ! – وضعوا كل عاطفتكم فى ترتيلكم ! »

هكذا فعلوا . وانتفخ الجمهور من جراء زفرة منتصرة ، وفى حين كان سقف الكنيسة يهتز من الترتيل ألقى توم سوير بصفته القرصان بنظرة حوله لكى يرى الصغار الذين نظروا إليه نظرات كلها حسد ، واعترف لنفسه أن تلك كانت أعظم لحظة فى حياته يمكنه أن يفخر بها .

وعندما انفض الحشد خارج الكنيسة دار الحوار عن استعداد الجميع المطلق لسماع هذه الترتيلة وهى ترتل بهذه الطريقة مرة أخرى مهما كانت السبب فى إثارة السخرية منهم .

فى ذلك اليوم حصل توم على قبلات وضربات مداعبة توقفت على الحالة النفسية المتقلبة للعمة بولى ، وذلك أكثر مما حصل عليه من قبل فى عام بأكمله . ونادراً ما عرف : أى القبلات وأى الضربات عبرت عن أسمى آيات الشكر لله وعن عاطفتها الجارفة تجاهه ؟ »

يقول سميث : «هنا يرتبط توم تماماً بالمجتمع – الذى توحد هو والحشدُ الذى فى الكنيسة ، إنه مجتمع متناغم تماماً مع نفسه ، والبهجة العامة تعبر عن نفسها فى إنشاد الترنيمة المسيحية بقيادة القس . ومن النادر أن تنال الثقافة الرسمية لسان بيترزبرج تأكيداً مطلقاً أكثر من هذا . »

لكن هل هذا التناغم كاملٌ بالدرجة التى يتكلم عنها سميث ؟ لقد حقق توم انتصاراً إيجابيًّا مجيداً ، لكنه لم يحققه بالتأكيد بوسائل مقبولة اجتماعيًّا : لقد فر هارباً وتاركاً المجتمع فى فوضى

واضطراب ، وحقق بالخداع فقط «أعظم لحظة فى حياته يمكنه أن يفخر بها». أما فيما يتصل بالعمة الثائرة والعائلة المضطربة فكان سلوكه غير رحيم على الإطلاق فى مهارته . ولم يكن أسلوبه للحصول على التقدير والشهرة مثل أسلوب أخيه سيد على سبيل التأكيد : فقد كان أخوه ملتزماً تماماً بتقاليد مجتمعه . وعلى الرغم من ذلك كان توم بمثابة المثل الأعلى لغيره من الصبية . وقبل ذلك بدت مهارته فى جمع عدد من التذاكر يمكنه من أن يربح نسخة من الإنجيل بدون أن يحفظ النصوص عن ظهر قلب ، والمطلوب تسميعها للفوز بهذه التذاكر بأسلوب شرعى . لكن مهارته لم تسعفه وانتهت المحاولة بالإحراج والعار الشائن عندما جاء مفتشو وأساتذة مدارس الأحد للزيارة وتقويم الأمور !

أما بالنسبة لترتيل الترنيمة فمها كانت لها من دلالة على المعتقدات والمثل الدينية لمجتمع البالغين – فلم تكن بالنسبة لتوم سوى انتصار دنيوىٍّ بحتٍ فقد اعتبر العملية كلها مجرد عرض طريف . وبالطبع فإنه من غير الممكن إنكار أن العرض نفسه والرغبة فى التجسيد الدرامى لانقلاب فجائى مثل عودته إلى الحياة فى أثناء القيام بمراسيم جنازته الخاصة به – يعد هذا رمزاً للاهتمام الملح برضا المجتمع وموافقته فى حين أن هـاك فن فى روايته لا يقيم أى اعتبار لموافقة المجتمع !

وبالتأكيد فإن عدم ارتباط توم بمجتمعه وقيمه ليس مطلقاً كما هو فى حالة هاك . وحتى إذا بحث توم عن مباركة المجتمع له فإن هذا يتم بشروطه هو وليس بشروط المجتمع . وبطول «مغامرات توم سوير» يحافظ على هذه المسافة بتقبله مظاهر الموافقة والجوائز بشروطه هو فقط .

وبالطبع فإن توم ينتصر تماماً فى النهاية ، فهو يرجع من الكهف بطلاً ، وبعد ذلك بفترة وجيزة يحوز المباركة المطلقة للمدينة بأن يصبح من الأثرياء ! وكما يلاحظ جاستن كابلان فى تأريخه الممتاز لحياة صامويل كليمنز أن «توم سوير» «انتهت بتأسيس شركة ذات رأس مال لتسلم الودائع والإقراض باسم توم وهاك . والحصول على المال بربح ستة فى المائة لا يعنى سوى الاندماج فى مجتمع الملاك وهيكله المنظم .» إن هذا حقيق تماماً ، لكن لابد من تقويمه مرة أخرى هنا بالتأكيد الفعلى على أن توم حافظ على موافقة المجتمع بشروطه الخاصة به هو . لقد اخرج «الكنز المدفون» الذى اكتشفه فى الكهف تحت علامة الصليب .

وبالإضافة إلى ذلك فإن قيمته بالنسبة لتوم ليست فى الثروة من أجل الثروة ، بل تكمن فى المناسبة التى تتيحها فى المنظر الكبير بما يحتوى عليه من لمحات بطولية واكتشاف درامى فى

مواجهة أهل المدينة المتجمهرين . وماكان يهمه بالدرجة الأولى فى هذه الحلقة وغيرها من الحلقات الأخرى هو الفرصة لإبراز «الروعة المسرحية للعملية كلها .» فإذا كان توم تاجراً ماهراً قديراً كما ثبت فى موقف طلاء السور وفى تجميعه لتذاكر الإنجيل – فإن أهدافه النهائية لم تكن قط على سبيل الارتزاق ؛ فلم يكن الهدف الرئيس من عملية السور المطلى بالأبيض هو الحصول على ثروة الصبا بقدر ماكان الاستمتاع بالتحايل على العمة بولى . وفى عملية تذاكر الإنجيل لم يكن الإنجيل هو الذى يريده ، بل الشهرة التى تسير فى ركابه عندما يستدعى لاعتلاء المنبر وتقديم الجائزة إليه !

وإذا كان الاختلاف بيناً من باب الاحتمال فإنه مهم على سبيل التأكيد : فبطول الرواية يتورط توم فى مؤامرة كما يفعل بالضبط فى رواية «هاكلبرى فن» . إن الهدف من تخطيطه هو نفسه لم يتغير : البطولة الرومانسية . فهو يقف إلى جانب دون كيشوت ، وليس إلى جانب سانكو بانزا . فى رواية «توم سوير» يقاوم مجهودات العائلة والمدينة التى تجبره على الالتزام بهما : فهو لن يقنع بالانتماء إلى المجتمع وقبول وسائله المملة الكئيبة ، إنه يصور لنفسه أن مدينة صغيرة فى ميزورى مكان يصلح بالفعل للمغامرة المثيرة ، وأن تل كارديف هو غابة شيروود ، وأن جزيرة جاكسون هى معقل القرصنة ، وأن كهف ماكدوجل عرين عصابة من اللصوص حيث يتم أسر المختطفين من أجل الحصول على الفدية ، وأنه فى مجتمع الطبقة المتوسطة يكمن إمكان البطولة ؛ إذ إنه المجتمع الذى يعيش فيه : ففى مطلع الرواية يبدو صبيًّا صغيراً لا وزن له ، وفى ختامها يصبح بطلاً . ليس هذا فقط ، بل إنه أحال بالفعل سان بيترزبرج إلى مكان حافل بالقراصنة والمجد والكنز المدفون . وبدلاً من الالتزام بقيم البالغين جعل مجتمع البالغين ينتمى إلى قيمه هو !

ونعرف فى الفصل الأخير أن «كل بيت مسكون فى بيترزبرج وفى القرى المجاورة تم تشريحه قطعة قطعة ، وحفرت أساساته بحثاً عن الكنز المدفون ؛ لم يقم بهذه العملية صبية ، بل رجال فى منتهى الجدية ، ولا ينتمون إلى الرومانسية بصلة ، وشارك فيها بعض الصبية أيضاً» .

وبالطبع فإن الانتصار مؤقت ، وهذه حقيقة يعرفها القارىء كما يعرفها القصاص تماما . فلم تكن هناك اكتشافات أخرى لكنوز مدفونة فى سان بيترزبرج على الرغم من أنه من المحتمل أن توجد أنواع أخرى من الكنوز أكثر تأثيراً بأسلوبها الخاص من ذهب القرصان . وأعتقد أن (ت . س . إليوت) كان مخطئاً عندما تنبأ ذات مرة أن توم «سيصبح ذات يوم عضواً محترماً

بارزاً وتقليدياً فى الهيئة الاجتماعية التقليدية المحترمة . » وأنا لا أشك لحظة أن توم سيتمكن من إثبات وجوده تحت أضواء المسرح ، وسيكتشف فرصاً عدة من أجل الروعة المسرحية ، وسيكتسب تقدير المجتمعات التى تكبر سان بيترزبرج بمراحل ؛ لكن كونه سيفعل هذا بالأسلوب التقليدى ، وسيتوحد هو وهم ومثلهم العليا – فإنى أشك فى هذا كثيراً . فما قد يكون كافياً لإيمان وخيال مواطنى سان بيترزبرج البالغين فمن المحتمل ألا يكون كافياً لتوم سوير : ففى سن الثانية عشرة أو حوالى ذلك حصل بالفعل على قمة التقدير من سان بيترزبرج ، ولن يمر به الوقت طويلاً حتى يسعى إلى مجالات جديدة لغزوها . وليس من المحتمل إلى حد بعيد أنه سيكون قانعاً بنوعية المستقبل الذى كان القاضى ثاتشر يفكر فيه من أجله . وكما نعرف فإن القاضى كان « يأمل أن يرى توم محامياً كبيراً أو جندياً عظيماً ذات يوم . وقد صرح بأنه كان يضع فى اعتباره أنه يتحتم على توم أن يلتحق بالأكاديمية القومية العسكرية ، وبعد ذلك يتم تدريبه فى أحسن مدرسة للحقوق فى البلاد لكى يكون مستعداً لأى من المهنتين أو لكلتيهما . . » وإلى حد ما فإننى أشك فى أن هذا ما كان توم يفكر فيه . وأعتقد أنه من المحتمل أكثر أنه سيصير روائياً ، وسيكون ذلك الكاتب الذى فى مقدوره أن يكتب كلاً من « توم سوير » و « هاكلبرى فن » . وفى النهاية فإن أيًّا من الكتابين لا يعد تأكيداً للثقافة الرسمية .

وعلى سبيل التكرار فإن « توم سوير » تقع فى الماضى ، فعندما يحكيها الروائى فإنها تكون قد وقعت منذ أمد بعيد بالفعل . وإذا كانت « مغامرات توم سوير » قصة تدور أحداثها حول النجاح – أى حول صبى أمريكى صغير يصبح ثريًّا وشهيراً . وهى تشبه فى هذا المجال حواديت هوراشيو آلجر – فإن طعم هذا النجاح الحلو يختلط بالمرارة إلى حد ما : ففى انتصاره على ظروف قريته يفقد توم سوير شيئاً هو الآخر بالدرجة نفسها . وهناك أسماء عدة يمكن أن نطلقها على هذا الشىء : البراءة ، الصبا ، الطبيعة وأساليب المعيشة الهادئة .

وقد قال هاك فن عن توم سوير فى كتابه هو : « لقد حسبت وآمنت بوجود الأعراب والأفيال ، وبالنسبة لى فأنا أفكر بطريقة مختلفة . » والمقصود بالأعراب والأفيال هنا هو الخيال الذى كان بمثابة العالم الخاص بتوم سوير .

وفى ختام « مغامرات توم سوير » يجد توم هاك مختبئاً بين براميل الخمر الفارغة خلف السلخانة ، ويقنعه بالعودة إلى بيت أرملة دوجلاس وأن يلتزم بقيود المجتمع ولو لفترة وجيزة ، لكنه يقول هذا فقط حتى يستطيعا بعد ذلك أن يخرجا على القانون ، وأن يكونا عصابة

لصوص ! أما صامويل ل . كليمنز فلم يكوِّن على الإطلاق عصابة لصوص ، وبدلا من ذلك أقام داراً للطباعة أدت به فى النهاية إلى أن يفقد ثروته كلها ؛ كما أنه لم يستقر فى حياته اعتماداً على نسبة الستة فى المائة التى كان يمكن أن يدرها عليه دخله . فقد ألف الكتب التى تشتمل على اثنين يعتبران من الكنوز الأدبية سواء فى بلاده أو فى العالم :

يبدو أحدهما فى عنفه وجرأته الأخلاقية محطماً للرضا الكاذب عن النفس وقناعة الكبرياء المزيف والظلم كأى كتاب آخر كتب خصيصاً بهذا الهدف .

أما الكتاب الآخر فهو قصة تتخذ من عنصر الزمن مضموناً لها ، وتدور حول موسم صيف مضى منذ زمن بعيد ، وتزخر بالأمانة والصدق والحقيقة . وإذا كانت أكثر رقة وأقل جرأة من الرواية التالية التى تكملها – فهى مازالت بأسلوبها الخاص قصة مذهلة أيضاً ، وتحفة كلاسيكية لم يكن لها مثيل من قبل .